الفن من أجل الفن

كان من الواجب أن أقرأ هذا الكتاب [1] منذ زمن مديد، ولكنى وضعته جانباً ونسيته، ثم جاء يوم فإذا بى أجده، وكان يوما ملائماً لقراءته؛ فقد كنت فى حاجة إلى كتاب يجمع بين اللذة والتسلية، يستفيد منه العقل وترتاح إليه النفس. فوجدت ضالتى فى هذا الكتاب؛ فهو يتكلم عن حركة من أهم الحركات الأدبية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر، وهو يقص قصتها فى إسهاب وبيان بديع. هذه الحركة هى التى عرفت بالفن من أجل الفن، أى معالجة الأمور الفنية لمجرد الفكرة التى توحيها هذه الأمور.

وهى حركة نشأت فى إنجلترا نتيجة لتأثر بعض الأدباء والفنانين بأدباء القارة، وكان فيها دليل على اتصال الثقافة الإنجليزية والأمريكية بثقافة القارة الأوربية.

فلقد تركت حروب نابليون حالة فى أوربا أشبه بما نشاهده الآن «قارة مريضة ترتعد فى أسمال ملابسها القديمة الزاهية بين بقايا معاهد مدن تنظر بعين مظلمة إلى مستقبلها.»

سادت فى مبدأ الأمر روح التشاؤم فى أوربا، ولا سيما فرنسا التى قاست وطأة هذه الحروب، ونتج من هذا اليأس روح مقابل هو روح التحدى، واندفع الأدباء والمفكرون نحو العبث بالقيم المعروفة فى الأخلاق؛ ولذلك نجد حوالى سنة ١٨٣٥ قصة كقصة «مدموازيل دى موپان» يكتبها شاب صغير هو تيوفيل جوتييه. وهكذا صار ما عرف بالحياة البوهيمية علماً على الأدب فى ذلك العصر، وظهرت عدة كتب وعدة صور، وتأثر الشعراء ورجال الفن بهذا الروح.

وجاءت الإمبراطورية الثانية، فإذا فرنسا تعود سيدة على الثقافة فى العالم،

---

(١) *The Aesthetic Adventure*, by William Gaunt (Jonathan Cape, London).

وتصير باريس عاصمة أوربا فى الأدب والفن يقصدها الزائرون من كل ناحية حيث يستطيع الأديب أو الفنان أن يحيا من أجل الفن وحده .

وكانت بريطانيا بالرغم مما اكتسبته من قوة وثروة ، لاتزال فى عقليتها أشبه بالكاهن المنقطع فى صومعته، ترى المستقبل فى الصناعة الميكانيكية . فلقد بلغت الصناعة فيها مبلغاً عظيما ، حتى صارت وليس لها مثيل بين دول العالم فى ذلك الاتجاه ؛ فلم تكن مثل فرنسا مشغولة بالهزيمة والتدهور بل كانت مشغولة بمشاكل النجاح ومتاعبه .

وكان من نتيجة ذلك أن نظرت بريطانيا إلى القارة نظرة الرجل المتعالى ؛ فقد أدت واقعتا الطرف الأغر ووترلو إلى الاعتقاد بأن الإنجليزى بمقام ستة من أبناء أى بلد أوربى آخر ، وأن الفرنسى رجل قزم مهذار تأخر فى سباق الحياة . وكان الإنجليز فى ذلك العهد لا يحترمون إلا الألمان ، ووجد بينهم كتّاب مثل توماس كارليل يمجدون ما فى الجنس الألمانى من مزايا الشجاعة والدأب على العمل . لذلك كانت حركة الفن من أجل الفن ، وهى التى استقت معينها من فرنسا ، حركة غريبة غير مستحبة لدى الإنجليزى فى عهد ڤيكتوريا ، واعتبرت حركة خطرة يجب محاربتها والقضاء عليها ؛ لأنها مستقاة من بلاد الهزيمة والتدهور .

لنأخذ إذن فى ذكر دعاة هذه الحركة ، ولنبدأ بمصور أمريكى كان يعيش فى باريس فى سنة ١٨٥٦ ، هو چيمس أبوت ماكنيل هويسلر ، جمع حوله نخبة من أبناء الجزيرة عشقوا الفن وعرفوا أن موطنه باريس وعاشوا عيشة بوهيمية مطلقة من كل قيد ، وما أكثر القيود فى ذلك الوقت ! واتصلوا بالأدباء والمصورين من الفرنسيين .

ظل هذا المصور ردحاً من الزمن يتثقف فى فرنسا ، ثم انتقل إلى إنجلترا ليعمل ويكسب أموالا ؛ فالانجليز أغنياء وأسخياء ، وإن كانوا بعيدين عن الذوق الفنى . وقد جاء معه بصاحبين من الفرنسيين لأنهما يعيشان عليه ، وهو يعتمد على أقرباء له فى العاصمة الانجليزية ، أهمهم فى نظره زوج أخته الذى كان طبيباً موسراً ، وفى الوقت نفسه محباً للتصوير .

وقد عرف الصاحبان فى داره كيف تكون لذة الحياة ، وعلى قول أحدهما لذة احتساء زجاجة من الكونياك دون أن يدفع لها ثمناً . ولكن الطبيب على

حبه للفن الجميل كان رجلا وقوراً لا يحب الفن المقترن بمسلك البوهيميين ؛ فلم تلبث علاقة المصور بزوج أخته أن تحولت إلى فتور ثم إلى عداء مقيم .

وكان من رجال هذه الحركة الشاعر الإنجليزى ألجرنون تشارلس سوينبرن وكان فى ذلك الوقت فتى عجيب المنظر ذو شعر أحمر طويل وعينين خضراوين ووجه ممتقع ، وكان فى مثل سن المصور هويسلر ، عاش فى باريس وعرفه المصور ، وكان يجل الفرنسيين حتى ادعى أنه من سلالتهم ، ويحب فيكتور هوجو ، ويحب شعر بودلير ، وكتب إلى هذا الأخير رسالة طويلة تدل على الحماسة والإجلال بعد أن قرأ ديوانه « زهور الشر » ، فرد عليه الشاعر الفرنسى بعد سكوت طويل برسالة ذكر فيها أنه لم يكن يتوقع قط أن يرى أديباً إنجليزيًّا يستطيع أن يخترق سر الجمال الفرنسى ، وأغراض الشعر الفرنسى . وقد اعتنق سوينبرن فكرة الفن للفن ، فكان يقول : « إذا استخلص القارئ من أية قصيدة دواء روحيًّا وإذا ابتلع القصيدة كأنها وصفة أخلاقية ، فإن الشاعر الذى يقدم هذه الأدوية العقلية لا يمكن أن يكون فنانا . »

وكان الفضل لسوينبرن فى أن عرف هويسلر الشاعر المصور دانتى جبرييل روزيتى فى داره بلندن . كان روزيتى فى ذلك الوقت حزيناً لوفاة زوجته ، وهو ضخم الجثة فى الثلاثين من عمره ، يمضى أوقات عمله بين قرض الشعر والتصوير ولا سيما صور النساء الجميلات كما يتخيلهن ، ويمضى أوقات فراغه فى جمع غرائب من الحيوان والمصنوعات والناس . وله جاذبية خاصة فتجده محاطاً دائماً بجمع من الأصدقاء والمعجبين والمتطفلين ، وظل هويسلر على علاقة حسنة به مدة عشر سنوات ، وكان يراه كل يوم تقريباً .

ومن هؤلاء الجماعة أو من ضحاياها شخص عجيب هو مصور يهودى اسمه سمون سلمون ، كان مثالا لأولئك الشبان الذين تأثروا بشعر بودلير إلى درجة أن ابوا على أنفسهم السعادة التى قد يحصلون عليها فى حياتهم ، وانحدروا فى تيار الشقاء عن رغبة فى تقليد الشاعر فى شقائه . وكان سلمون فى بعض اتجاهاته شبيهاً بالشاعر بول ڤيرلين إلا أنه لم يكن شبيهاً به فى عبقريته . وقد تعرف إلى سوينبرن فوجد فيه جمالا أشبه بالجمال الذى يتخيله الإغريقيون مختلطاً برواء شرقى . ورأى فى حديثه نزعة تجمع بين أسرار المسيحية وعقلية الوثنية ، كما وجد الشاعر فى هذا المصور اليهودى الصغير ، مثالا من شباب الإغريق فى

عصرهم الذهبي ، لا سيما إذ رآه مرة يقف أمام زميل مصور فى ثوب إغريقى قديم ، فكأنه أبلسون نفسه نزل إلى هذه الأرض ، ليطلع أهلها على سر الجمال . ولقد صارا رفيقين لا يفترقان ، وكانا يقضيان أوقاتهما فى دار روزيتى . ورآهما صاحب الدار ذات مرة وقد خلعا ملابسهما وأخذا يجريان عاريين فى حديقته ، كما كانا يتخيلان فعل آلهة الإغريق فى غابات الأولمب .

هناك رجل آخر اتصل بسلمون المصور اليهودى الصغير ، ذلك هو والتر هوارشيو پاتر ؛ فقد اعجب بصورة رسمها هذا المصور لإله الخمر ، رسمها بعد أن صاحب أوسكار براوننج إلى إيطاليا . ورأى پاتر فى هذه الصورة فنا عظيما ، وفى وجه إله الخمر جمالا مقرونا بالخبث مما يتناسب مع الموضوع كل التناسب . وقد نشأت بين الأديب والمصور صداقة متينة ، فصار هذا الشاب المصور فى نظر ولتر پاتر ممثلا للفن من أجل الفن ، وهى عقيدته التى يدين بها .

وكان پاتر رجلا غريب الأطوار ، مات أبوه الطبيب وهو لا يزال طفلا ، وتركه لعناية أمه وجدته وخالته . وكان پاتر طفلا خجولا لا يحب الألعاب العنيفة ، فلم يكن معروفا بين زملائه فى المدرسة ، وأخذ منذ صباه يأوى إلى العزلة فيجد لذة فى زيارة الكنائس القديمة والتأمل فى أبنيتها ، واشتدت نزعته الدينية وعكف على طقوس الدين ، حتى خشى بعض أقربائه أن يتحول إلى الكاثوليكية ، ولكنه عندما التحق بجامعة أكسفورد فقد كل إيمان بالدين ، وأخذ يسخر من أصدقائه الذين يقومون بواجباتهم الدينية . وكانت المذاهب الدينية فى أكسفورد فى ذلك الوقت تشغل أذهان الطلاب والأساتذة ، ولكن هذا الشاب الذى كان منذ قليل شديد التدين صار شديد الحملة على هذه النزعة ، ولم يعد أصدقاؤه يعرفون إلى أى مذهب ينتمى . ولعل الحقيقة أنه صار ممن يستقون عقيدتهم من هرقليوس وأفلاطون وبيتاغورس والألمانيين هيجل وشلنج .

أقبل پاتر على قراءة الآداب الأوربية ، وأخذ فى ترجمة بعض الكتب الخالدة من آثار أفلاطون وأرسطو ، وحرق سائر ما نظمه من شعره فى طفولته الأولى لما فيه من عاطفة مسيحية ، وأخذ يدرس كتب فلوبير وبودلير ، وصار رأيه فى الفن متأثرا بالقدماء من الإغريق ، وبالمحدثين من الألمان والفرنسيين .

وازداد پاتر رغبة فى الابتعاد عن الناس وفى حب العزلة . وكان يحب الجمال المثالى ، فيكره مخالطة ذوى الصورة السخيفة القبيحة ، وكان لا يألف من الأصدقاء إلا من لهم مسحة من جمال ، ولكنه لم يكن متحمسا فى صداقته ، كان يبتعد عن الألفة والمخالطة ، ويكره كل الإحساسات العنيفة . وقد حاول فى وقت ما أن يكون قساً بالرغم من ابتعاده عن الدين ، فحاول صديقان أن يثنياه عن عزمه وأصر هو عنادا منه ، فكتبا إلى الأسقف يخبرانه بعقيدته الحقيقية ، فعدل الأسقف عن رسامته .

ومع ذلك كان پاتر على إلحاده يعيش عيشة الراهب ، عيشة بسيطة لا يتمتع فيها بلذائذ الحياة إلا قليلا ، وكان كل ما يهتم له هو ذلك الجمال المثالى فى كل شئ ؛ فكان فى كتاباته يعمل على صقل العبارة حتى تصل الغاية ، ولا يهمه مطلقا أن يكتب شيئاً يكون ذا مقصد أخلاقى أو أدبى ، بل كل غرضه ان يبلغ إلى تصوير الجمال لذاته ، كما نرى فى دراساته عن الفن والشعر فى عهد النهضة . وصارت الحياة فى نظره إن هى إلا نظام لفن الجمال . وقد قيل إن طالبا سأله ذات يوم لماذا يجب علينا أن نعمل الخير يا مستر پاتر ؟ فأجاب : لأن الخير جميل .

ما مضت ثمانون سنة من القرن التاسع عشر حتى أخذت مجهودات هويسلر وسوينبرن وپاتر فى تفسيرهم للفن من أجل الفن تؤثر بعض الشئ فى الجمهور الإنجليزى ، وأخذت الصحافة الهزلية تسخر منهم وتتناولهم بالنكات اللاذعة ، وهم ماضون فى آرائهم لا يهتمون إلا بالأصدقاء من الأدباء الناهضين الذين كانوا على اتصال بهم فى فرنسا .

كان تأثيرهم عميقا ولكن فى عدد قليل من رجال الفكر بين الإنجليز ، أما السواد الأعظم من الجمهور الإنجليزى فكانوا واقعين تحت تاثير نبىّ ذى صوت مسموع وشهرة كبيرة هو جون راسكن الذى ينادى بمبادئ تخالف مبادئ هؤلاء كل المخالفة ؛ فهو يلقى محاضراته ويكتب كتاباته عن الفن فى كل مكان من إنجلترا فتسمع له الجماهير . وكان فى كلامه وفى قلمه حماسة نارية وبريق يخلب الألباب ، ولكن السر الأساسى فى شهرته هو نزعته الإنسانية . فالفن لديه ليس مجرد سحر غريب وسر من الأسرار ، بل هو مسألة معاصرة ومشكلة قائمة يجب علاجها ، وله غرض خلقى لا بد من تحقيقه . وقد اتخذ راسكن مركز النبى وظل غارقا فى فضائل مصورى القرون الوسطى والمتقدمين من أساتذة

الفن الإيطالى ، حتى إنه لم يفطن لما قد طرأ من تغيير على الفن ، وكان يعتقد أنه لن يحدث تغيير بغير موافقته وبركته .

ففى ذات يوم من سنة ١٨٧٧ ذهب لزيارة معرض جروفنر وهو الذى جمعه سير كوتس ليندسى ، وهنالك شاهد صورة فظيعة فى رأيه هى إحدى صور هويسلر التى سماها الليالى ، فلم يتمالك أن أمسك بقلمه وكتب فى المجلة التى كان ينشر فيها نقداً لاذعا قال فيه : إن غرور الفنان الذى يدل على سوء تربيته يكاد يبلغ مبلغ الغش المقصود .

وهكذا رمى راسكن بقفازه ، ولكن خصمه لم يتردد فى تناول هذا القفاز .

لقد أخرج هويسلر فى تلك الأيام خير صوره ، فقد وضع تلك المناظر الطبيعية لنهر التاميز فى غسق الليل ، وهى التى أطلق عليها اسم الليالى على سبيل الذكرى لقطع شوبان الموسيقية المسماة بهذا الاسم ، وصور الصورتين الشهيرتين لوالدته ولتوماس كارليل ، ولكن هذه الشهرة لم تكن إلا لتزيد علاقاته بمعاصريه من المصورين الإنجليز سوءا ، وجاء نقد راسكن اللاذع فطفحت الكأس ، ولم ير إلا أن يرفع أمره إلى القضاء . على أن عواطف الجمهور كانت مع جون راسكن ذلك الذى ينادى بأن الفن للجميع وللعمال قبل أن يكون للسادة ، وللشارع قبل أن يكون للقصر على حين كان هويسلر يقف موقفه الذى يرى فيه أن يكون الفن من أجل الفن الخالص دون أن يقصد به غرض نافع .

وبدأت القضية ، وكان على هويسلر أن يقدم الإثبات بشهود مختصين ، فمن يشهد له ؟ أهو هولمان هانت الذى يرى أن الصور التى عرضها إنما تدل على تكاسل فى العمل بحيث يجب ألا تؤخذ جديا ؟ أهو ميلر الذى ينظر إليه نظرة الأستاذ ويرى أنه لم يقع تحت يد الممتحنين ؟ أهو أدوارد پوينتر الذى كان يعارضه ولا يرى فيه خيرا ؟

لقد وجد هويسلر مشقة فى الحصول على شهود ، فالرسام كين مصور جريدة « پنش » اعتذر إليه والمصور فريدريك ليبتون وافق ، ولكنه عاد فاعتذر فى يوم القضية إذ كان عليه أن يشهد حفل الإنعام الملكى وتلقى وسام الفروسية فى ذلك اليوم . ودانتى جبرييل روزيتى مريض لا يقوى على الخروج . ولم يجد هويسلر فى آخر الأمر غير مصورين قليلى الشهرة ، أحدهما البرت مور ، والآخر جورمان ويلز ، وكان له صديق مصور

ذو شهرة هو بيرن جونس ولكنه للأسف جاء فى صف خصمه وابتدأ نظر القضية . ولأمر ما غصت المحكمة بالناس وتجمهروا حتى فى الطرقات ، وكان حادثاً فريداً فى تاريخ القضاء . وأخذ القضاة يتناولون فى وقار تلك القضية التى هى أعقد من قضية طلاق أو قتل . وكان محامى هويسلر يتكلم فى لهجة عجيبة كأنه يعتذر عن موقفه للخصم . ثم دُعى هويسلر لأخذ أقواله ، وكان بادى الثقة بنفسه يتكلم بلهجة أمريكية ظاهرة ، ويبدى فى كلامه حيوية وسخرية كبيرة . فبدأ بقوله : إنه ولد فى بطرسبرج ، ولم يكن الأمر كذلك ، ثم درس الفن فى باريس ، وأن تلك الصورة التى نقدها راسكن قد عجز عن بيعها بسبب هذا النقد . ووقف نائب الأحكام ليسائله : ما معنى ليلية ؟ فأجاب بأنها إحدى الصور التى تمثل مناظر الليل . وحينئذ أمر القاضى بإحضار الصورة فأدخلت ، ولكن الذين حملوها أتوا بها مقلوبة ، فضحك الجمهور . وسأله نائب الأحكام بعض أسئلة سخيفة ، ثم سأله عن الثمن الذى يبيع به صوره عادة ، فأجاب بأنه مائتان من الجنيهات . فسأله فى كم من وقت ألقيتها ؟ يقصد كم استغرق بيعها . فأجاب ساخراً ألقيتها فى يومين ، يقصد أنه انتهى من تصويرها فى يومين . وحينئذ سأله : أتطلب مائتى جنيه بمجهود يومين ! فقال : إنه تجربة عمر . وهكذا ظهرت المحكمة متحيزة لغير هويسلر وإن كان القاضى فى تلخيصه القضية للمحلفين قد أبدى أن راسكن تجاوز حدود النقد المباح ، وصرح بما يمكن أن يعتبر قذفا . واختلى المختلفون ساعة من الزمن ، ثم حكموا بأن هويسلر له عذره ، ولكنه شغل المحاكم بموضوع تافه ، ولذلك لا يستحق من التعويض إلا مليما .

هكذا كانت هذه القضية الأولى فاتحة لقضايا أخرى من نوعها . والواقع أن هذه القضية قد أثرت فى راسكن بقدر ما أثرت فى هويسلر ؛ فقد ذهب من راسكن سلطانه وسيطرته على النقد الفنى ، فترك منصبه أستاذاً للفن فى جامعة أكسفورد ، وقصد إلى ضيعته فى برنتوود حيث قضى السنوات الباقية من حياته فى هدوء وسكينة .

ولقد انتصر عليه الأمريكى ، ولكن خسارته المالية كانت فادحة ، فنفقات القضية كانت ثقيلة الوطأة عليه ، وهكذا أخذ فى وسط هذا الجمهور الإنجليزى الذى لا يعطف عليه يضع كتابه « الفن الجميل فى تأليب الخصوم » .

ولكن هل تأليب الخصوم فن، أم هو طبيعة فى بعض الأشخاص لايستطيعون معها إلا أن يوجدوا خصوماً ؟ لقد كان فى هذه الفترة يعيش شاب آخر مستهتر عرف كيف يؤلب خصومة الجمهور الإنجليزى عليه ؛ ذلك هو الأديب والشاعر أوسكار وايلد الإيرلندى الأصل، وهو ابن السير وليم وايلد الطبيب، والليدى وايلد التى كانت تقرض الشعر .

درس هذا الشاب الإيرلندى فى أكسفورد حيث أستمع لمحاضرات راسكن وعرف ولتر پاتر، وقابل سميون سلمون فتأثر بآرائه عن الفن من أجل الفن وحده . وكان الشاب لايعرف كثيراً عن الفن، لذلك تأثر تأثراً قويًّا بنظرية پاتر الذى يرى أن الفن سر من الأسرار، وأنه الشئ الوحيد الذى له قيمة فى الحياة . فأخذ الشاب يقلد أستاذه، فيعمل على أن يحيط نفسه بالأسرار وعلى أن يبدو كثير التأمل شارد الفكر، وكان يحرق البخور فى غرفته لا حبًّا فى الكنيسة، بل تقليداً لپاتر الذى يرى فى الدخان المتصاعد أثراً لدين قديم . ولم يكن وايلد ممن يقبلون على الألعاب الرياضية ؛ لذلك صار موضع سخرية من زملائه .

ومع ذلك كان وايلد ينظم الشعر ويكسب فيه الجوائز، ومات والده فكان عليه أن يجد طريقاً لكسب قوته، فقصد لندن ليتعرف إلى الكبراء . فكان من أوائل من عرفهم هويسلر فى تلك السنة التى نُظرت فيها قضيته، وكان يغشى مجالسه، فتعرف إلى كثير من المشهورين الذين كانوا ينجذبون إليه لطلاقة لسانه وعذوبة حديثه وغرابة زيه وتأنقه مع رشاقة قوامه . وفى تلك الأيام كتب رواية هزلية بالشعر، لحنت ومثلت، وفيها حاول أن يسخر من معايب بعض كبراء عصره فاشتهرت هذه الرواية وأقبل عليها الجمهور . فدعى إلى زيارة أمريكا لإلقاء محاضرات فى عدد كبير من مدنها، وقد ذهب إليها فى زيه العجيب المتأنق . وسأله رجال الجمارك : ألديه شئ يريد إعلانه ؟ فأجاب أعلن عبقريتى . فمنذ تلك اللحظة كان يقابل بعاصفة من الهتاف والتقدير حتى من أقل الجماهير تحضراً وقبولا لسماع حديثه . وكان فى مواقف حرجة لا يعوزه الكلام ولا يخونه ذكاؤه . ، وقد أعجب الناس برجولته فى أكثر من موقف بالرغم مما كان يعرف به بين أقرانه فى لندن من التخنث . وعاد من أمريكا ملئ الجيب ذائع الشهرة .

لم يكن هذا ليروق صديقه الأمريكي الذى إتخذ لندن مقاما ؛ فقد ظهرت على هويسلر بوادر الغيرة وأخذ ينتقد الآراء التى أذاعها وايلد فى محاضراته . فكيف يجسر الشاب على النصح بأن على الناس أن يغيروا من طريقة زينة دورهم . ففى رأى المصور أن ذلك أمر لايهم مطلقا ولا يتفق مع القول بأن الفنان يجب أن يعمل للفن وحده وصار فى مجالسه الخاصة يسخر من آراء الشاب وصار هويسلر فى محاضراته يهزأ بنقاد الفن الذين لايعرفون شيئاً . وكان أوسكار وايلد يحضر هذه المحاضرات . ففى ذات مرة رفع الصوت معلنا أنه يختلف كل الاختلاف مع مستر هويسلر ؛ فليس الفنان رجلا منفرداً بنفسه ، وقال إن إدجار ألن پو وبودلير هما من سادة الحياة لا بنيامين رست وپول رى لاروش . فلما أراد هويسلر أن يسخر منه لاختياره هـذين الاسمين غير المعروفين للفن أجاب وايلد فى هدوء إننى وجدتهما فى إحدى الموسوعات ، وقد ذكر أنهما كانا يحاضران فى الفن ولم يخلفا شيئاً من صورهما ، لذلك أنصحك أن تكون حذراً ياچيمس . وكانت هذه السخرية مما أدت بهويسلر إلى حب الانتقام ، فكتب ذات مرة يسائل أى علاقة لأوسكار بالفن إلا أنه يتعشى على موائدنا ويلتقط من فتاتنا بعض الفوا كه التى يبيعها فى الريف .

وهكذا أخذ هويسلر يبتعد عن أصدقائه ويجـد نفسه وحيداً . وكانت خصوماته تزداد بتبدمه فى السن وتتخذ أوضاعاً تافهة . ولقد صدق ديجا المصور الفرنسى حين قال عنه إنه لمن المتعب حقًّا أن يتخـذ الإنسان دور الفراشة بدل أن يكون ثوراً هرماً مثلى .

وهكذا أخذ المصور الأمريكى يشعر بالمرارة نحو جمهوره الإنجليزى . وكان هنالك شخص آخر أخذ يشاطره هذا الشعور هو جورج مور الايرلندى الأصل الذى نشر فى سنة ١٨٨٧ كتابه « اعترافات شاب » . فقد جاء مور إلى لندن بعـد أن عاش دهراً فى باريس وتعرف إلى رجال الفن وارتاد مشارب القهوة ، وتركت هذه السنوات فيه أثراً لا تمحوه الأيام . فلما أن جاء إلى لندن شعر بفراغ عظيم ، ولم يجد فى رفقائه فى مشارب الخمر مايعوضه عن عشرة مانيه ، وديجا ، ورينوار ، وڤيلييه دى ليل آدم ، وكاتول منديس ، على أنه لم يلبث فى لندن أن تحول من التصوير إلى الأدب ، حيث أخرج تلك الاعترافات التى تأثر فيها بكتابات ويسمانس الفرنسى وبكتابات ولتر پاتر الانجليزى .

وفى هذه الأثناء كان أوسكار وايلد قد زار باريس لأول مرة وقد ملأ جيبه بالدنانير الأمريكية ، فلقى جمعاً من الشعراء والأدباء أمثال جونكور ، ودوديه ، وملارميه ، وأعجب بفن سارا برنارد . وقد استكشف فى هذه الزيارة أن الآراء التى اعتنقها هويسلر وبشر بها لم تكن بالجديدة ، وقد أثرت فيه باريس بقدر ما أثرت فى جورج مور ، فأخذت رواية فلوبير عن هيروديا توحى إليه فكرة سالوميه ، ورواية ويسمانس إلى العودة توحى إليه فكرة صورة دوريان جراى . وعاد إلى لندن بعد أن تغيرت طباعه ، فعدل عن تلك الملابس الفنية التى كان يرتديها ليدل بها على نفس نزعته إلى ملابس عادية بادية التأنق ذات ذوق باريسى ، وأخذ يعيش عيشة اللهو واللذة .

سئل وايلد ذات مرة عن مرمى حياته فقال : إنى لا أبحث عن السعادة ، بل أنا أبحث عن اللذة وهى أشد ألماً .

وكانت اللذة حينئذ مؤلمة حقا . ولعل رجلا آخر فرنسيًّا كان يعيش وقتئذ فى لندن يبحث أيضاً مثل هذا البحث هو الشاعر پول فيرلين الذى بدأ سحره ينتشر على جانبى مضيق المانش ، والذى كان اسمه يذكر دائماً مقروناً بالشاعر الشاب رامبو .

أجل ! البحث عن اللذة هو الذى قاد أوسكار وايلد إلى تلك المأساة التى قضت على حياته وهو لما يتجاوز ربيع الشباب ، فإن اللذة إذا كانت حقًّا للأديب فإنها لابد أن تزيد من خصومات الناس حوله ، ولابد أن تمد منافسيه فى عالم الأدب بما يستطيعون أن يتخذوه موضوعا للحديث عنه واللغط حوله . ولقد اجتمعت حول وايلد جماعة من الشبان المعجبين به حتى انتاب أصدقاءه الخوف عليه . فرجال مثل فرانك هاريس وكلايد فنش لم يكونوا أنبياء ولكنهم مع ذلك بدأوا يرتعدون للغط الذى أثاره وايلد . وحاولوا أن يحذروه فلم يرتدع ، ولقد انتهز بعض الناشئين من الأدباء فرصة للهجوم على هذا الأديب الذى هو أكبر منهم سنًّا وأكثر شهرة . فعلى سبيل المثال وضع الكاتب روبرت هيتشنز الذى عرف بعض أصدقاء وايلد فى مصر قصة اسمها « الساقة الخضراء » ، شهر فيها بوايلد وجماعته . وكان أشد خصومه مركيز كوينزبرى المعروف وقتئذ فى حلقات الملائكة .

فقد كان المركيز لا يقر الصداقة الأدبية التى نشأت بين وايلد وبين ابنه لورد

الفريد دوجلاس، وبدأ الأب يعمل فى عنف على فصم هذه العلاقة . وفى ذات يوم زار وايلد فى بيته وأخذ معه رجلا ليكون شاهداً ، وأخذ يكيل لوايلد اللعنات والتهديد ؛ فما كان من وايلد إلا أن دق الجرس فجاء خادمه فقال له أمام الزائر الغاضب : أترى هذا الرجل ! إنه مركيز كوينزبرى أقبح وحش فى لندن ، فعليك أن لا تسمح بدخوله إلى هذه الدار مرة أخرى .

على أن كوينزبرى لم يكتف بذلك ، بل ذهب فى الليلة الأولى لتمثيل إحدى روايات وايلد ومعه مقدار من البقول والخضراوات ليقذف بها المؤلف . وأخيراً أرسل إليه رسالة فيها قذف قبيح . فرأى وايلد أنه لا يحسن السكوت على ذلك ، والتجأ كما التجأ هويسلر من قبل إلى القضاء لينصفه غير حاسب حسابا لتأثر القانون بالمجتمع .

استمر الفصل الأول من هذه القضية بل هذه المأساة ثلاثة أيام ، وقد دافع عن المركيز محام اسمه كارسن كان يعرف وايلد من أيام اكسفورد ، وكان الدفاع يرمى إلى إثبات أن كتابات وايلد ذات نزعة معيبة منافية للآداب ، فأخذ يلقى على وايلد أسئلة عن بعض قصصه على أن المحامى لم يكن قوياً فى هذا الباب ، ولكن قوته ظهرت فى اليوم الثانى من نظر القضية حين اتجه المحامى إلى الكشف عن حياة وايلد الشخصية . وكانت إجابات وايلد الذى يبحث عن البريق الأدبى مما يزيد التهمة التى يريد أن يثبتها المحامى فى هذا الوسط القضائى الذى لا يفهم إلا أن الكلمات تعبر عما قصد بها لا أكثر ولا أقل .

سأله المحامى هل أظهر الحب لخادم فى اكسفورد ؟ فأجاب وايلد على سبيل الاستخفاف : كلا ! فقد كان الخادم عادياً بل قبيح الصورة . فسأله المحامى : وما دخل قبح الصورة فى الموضوع ؟ فأجاب وايلد : لا أقصد شيئاً وإنما تأثرت لسؤالك العجيب .

ولقد ظهر فى هذه الأيام الثلاثة أن وايلد خسر القضية ، والقضاء الانجليزى حينئذ يفتح الباب واسعاً أمام المركيز لكى يقتص من التهمة التى اتهم بها . ولم يبطئ المركيز فى تقديم أوراقه عن طريق محاميه إلى المحكمة ، وصدر الأمر بالقبض على وايلد ، وابتدأ الفصل الثانى من هذه المأساة ، وكانت الصحافة فى ذلك الوقت أشد شماتة وثلباً للناس منها الآن ، وكان الناس أكثر رياء ، فتعالت الصيحات من كل جانب بما عبرت عنه إحدى الصحف حين قالت فى اليوم الذى

قبض فيه على أوسكار وايلد : إن خير مايفعله الناس هو أن ينسوا أوسكار وايلد بتصنعاته الدائمة ، وتعاليمه العجيبة ، ومنتجاته المسرحية . فإذا لم يحاكم فلندعه فى عالم السكون ولا نسمع عنه فيما بعد .

وكان من المستطاع لو أراد وايلد أن يذهب إلى عالم السكون بأن يسافر فى الباخرة إلى الجانب الآخر من المانش ويتفادى القبض عليه ، ولكنه لم يفعل ، وكأنه كان ينتظر هذا الاعتقال فى شىء من الراحة ، وكأنه كان يرى فى نفسه شهيداً من شهداء المذهب الذى ينادى به .

وبدأت المحاكمة ، وقد أطلق سراح وايلد بضمان شخصى فى فترتها ، ولكنه وجد أبواب الأصدقاء مغلقة دونه والفنادق لا تقبله ، وتقابله جماعة من المأجورين بالسخرية ، ولم يستطع أن يجد مأوى إلا فى غرفة أخيه . وقد نصحه بعض الأصدقاء بالفرار إلى فرنسا حيث ينساه الجمهور ويلقى على الحادث ستار ، فلم ينتصح وكأنما القدر يجره إلى مقدور لا مرد منه .

واستغرقت هذه القضية شهرين ، وكان بعض المخلصاء ، ولا سيما فرانك هاريس الكاتب الأمريكى ، يلحون عليه فى الفرار ، وقد أحضر له هاريس قارباً خاصًّا وقف ينتظره فى ميناء إريث ، ولكنه لم يفعل بل ظل يتردد على المحكمة حيث صدر الحكم عليه وخرج منها إلى السجن .

ولم يأل الجمهور الإنجليزى جهداً فى إظهار سروره بهذا الحكم ، فكان العامة يصيحون ليسقط الأرستقراط يتخذونه مثالا لقبائح تلك الطبقة الممتازة مع أنه لم يكن منهم ؛ إذ لا يمتلك غير ما يربحه من كتبه ، وقد حجزها الناشرون عن الجمهور بمجرد الحكم عليه ، كما سحبت مسرحياته من المسارح . وهكذا كان عقاب الذى أتى بجديد لم يألفه الجمهور شاملا ، واضطر إلى أن يحتمل فضلا عن السجن حكم الإفلاس وبيع أثاث بيته ومجموعاته والتحف التى كان يحبها بثمن زهيد وهكذا نزل ضيفاً على سجن ريدنج حيث كتب تلك القصيدة الشهيرة ، ووضع تلك الاعترافات .

أشرف القرن التاسع عشر على الزوال وقد منيت فكرة الفن من أجل الفن بما يشبه الهزيمة بعد أن تعرض أقطابها لسخط الجمهور الذى حاولوا أن يخرجوه من كهفه الفكرى . ومع ذلك ظل لهذه الفكرة تلاميذ لا يذهبون مذهب الأقطاب فى مغالاتهم وإن كانوا يعملون لهذه الفكرة . وكان المصور

الشاب أوبسبرى بيردسلى لا يزال حياً ، ذلك الذى كان يرسم صوره فيتخذ لباس القرن الثامن عشر فى جميع الصور حتى ما كان منها قديماً ، وقد اقترن اسمه بما رسمه من صور لرواية « سلوميه » المشهورة لأوسكار وايلد ، ومع أن الشاب المصور لم يكن على وفاق كبير مع أستاذه ؛ فقد كان وايلد يعتقد أنه خلق بيردسلى إذ أتاح له تزيين كتابه بالصور فى حين كان بيردسلى يعتقد أنه خلق وايلد إذ صور كتابه . وكان وايلد كثيراً ما يتهكم على بيردسلى ، وقال ذات مرة : « إن بيردسلى العزيز يعرف فرنسا حق المعرفة ؛ فقد سافر ذات مرة إلى ديبب » . ولا شك فى أن المصور تألم من هذا القول ، فهو فى قرارة نفسه ، كان يعتقد أن معرفته للأدب الفرنسى لا تقل عن معرفة وايلد به . ولم يكن بيردسلى ممن يعطفون على وايلد فى ضعفه الجنسى ، وهو بالرغم مما فى صوره من ميول شاذة كان يكره أن تتخذ هذه الصور دليلا على شذوذ فيه .

وكان من شبان هذه الحركة فى ذلك الوقت شاب من أهل ويلز اسمه آرثر سيموندز ، تلقى فلسفة الجمال من پاتر ، وقضى أوقات طويلة فى فرنسا ، فصارت النظرة الفرنسية إلى الجمهور عادة له ، وكان يحترم ڤيرلين وملارميه ، وهو زعيم الجماعة التى ظلت تلح على ڤيرلين حتى رضى بالخروج من المستشفى ليلقى محاضرات فى أكسفورد ولندن حيث نزل الشاعر الفرنسى العبقرى ضيفاً عليه ، وكان يشرب كميات كبيرة من شراب « الجن » ثم يصب على حلقة المعجبين حوله سيلا من الذكريات .

وقبل نهاية القرن بسنتين فتحت أبواب سجن ريدنج ليخرج منها وايلد إلى عالم لا يجد فيه صديقاً . ولم يكن من السهل على وايلد أن يعود إلى مجال الحياة كما فعل ڤيرلين ؛ فلقد استطاع ڤيرلين ألا يهتم بالمجتمع الذى كان فيه وأن يؤلف لنفسه تلاميذ ومريدين بالرغم من كل شىء ، وصارت رذائله أساساً لوجهة فلسفية جعلت منه شخصية يمكن مقارنتها بسقراط . ولكن وايلد لم يكن يستطيع شيئاً من ذلك ، فهو رجل مجتمع لا يستطيع أن يعيش بدون وسائل الترف والنجاح ، وهذا مما زاد فى تعاسته . والواقع أن وايلد لم يكن واسع الأفق ، وفى كتاباته بريق لا يتفق مع وقار مركزه الذى وجد نفسه فيه . وقد سأله كاتب فرنسى من المهتمين به هو أندريه جيد : « لماذا لا تضع مسرحية جديدة ؟ » فأجاب فى حزن أنه عاجز عن ذلك .

ولم يكن ليستطيع أن يتحول تحولا جديداً فى الأدب ؛ فلقد ظهرت بوادر تيارات جديدة فى الأدب الأوربى بعيدة عن فرنسا ، وهى تيارات لا تقوم على الفن وإنما تقوم على الآراء والمشاكل ، هـذه هى مسرحيات النرويجى إبسن وروايات الروس . وقد قال وايلد فى ذلك إن الفكر فى تلك الفترة قد تفهقر إلى النرويج وروسيا حيث لا تشرق الشمس وهو يفضل ضوءها .

ولقد قال : « لو طالت بى الحياة إلى القرن العشرين لكان ذلك فوق مايحتمله الشعب الانجليزى » . وكان فى قوله شىء من النبوءة ؛ إذ لم يكد يبزغ القرن العشرون حتى كان وايلد قد أسلم الروح .

ومع ذلك كانت حياة وايلد رمزاً لتضحية غريبة . ولقد قال عن نفسه إنه وضع عبقريته فى حيـاته على حين أنه وضع ذكاءه فى كتبه . وقد يكون هذا القول صادقا فى جوانب كثيرة منه .

حسن محمود